الفضاء الجغرافي والفضاء النصي
في رواية "شرق المتوسط" "لعبد الرحمان منيف"

أ. وفاء غالية

جامعة المسيلة

wafa_yagoubi@yahoo.com:

مُلخّص البحث

إن أهمية الفضاء الروائي بكل أنواعه نابعة من ذاته؛ إذ أنه روح الرواية وسحرها الخاص الذي لا ينتهي إلا بنهايتها، فهو موجود على امتداد الخط السردي، ولا يغيب أبدا حتى ولو كانت الرواية بلا أمكنة، فنجده حاضرا في اللغة، وفي التركيب وكذلك في حركية الشخصيات وفي الإيقاع الجمالي لبنية النص الروائي. ولقد شكل الفضاء عن طريق تمظهراته المختلفة عالما مختلفا في هذه الرواية؛ إذ أنه كان فضاء متميزا عكس رؤى الكاتب وتصوراته للمجتمع والسياسة، وسيظهر لنا ذلك من خلال معالجة الفضاء الجغرافي و الفضاء النصي.

الكلمات المفتاحية: الفضاء الجغرافي، الفضاء النصي، الرواية، المكان.

Résumé

L'importance de l'espace de l'œuvre avec tous ses types est inspirée de cet espace même, par ce que l'esprit de l'œuvre et sa magie particulière me se termine que par la fin, il esciste tout au long, la distance narrative et il ne s'efface plus même si l'œuvre est sans lieux, nous le trouvons présent dans la langue.et aussi dans la synthèse et le mouvement des personnalités et dans la dimension esthétique de la forme du texte de l'œuvre .

L'espace a construit avec ses aspects diversifies un monde différent dans c'est l'œuvre , Il était un espace particulier contrairement aux visions du livre et ses imaginations envers la société et la politique et cela va apparaitre d'après le traitement de l'espace géographique et l'espace textuel.

****

تقديم:

يعد الفضاء من أهم مكونات النص الروائي، فهو الإطار العام الذي تتحرك فيه الشخصيات، وتحدث فيه الأحداث، وحتى الرؤى والتصورات مرتبطة بالفضاء؛ إذ أن لكل فضاء أبعاده النفسية والاجتماعية والتاريخية، وحتى الإيديولوجية، ومن هنا جاء الاهتمام بالفضاء باعتباره الحجر الأساس في الرواية، فلا وجود للرواية دون فضاء متخيل، ونظرا لهذه الأهمية سعى بعض الدارسين إلى دراسته بشكل دقيق يكشف عن تمفصلاته داخل المنظومة الروائية.

ولعل أبرز وأول من انبرى لدراسة الفضاء هو "**غاستون باشلار**" صاحب كتاب "**جماليات المكان**"، الذي تناول فيه الفضاء من الجانب الوجداني؛ حيث ربطه بالوجود الإنساني، واعتبر أن لكل مكان فضاؤه الخاص، ولكل فضاء رمزيته الخاصة في نفس الإنسان، هذا يعني أن الأفضية عنده مختلفة باختلاف نفسيات الناس ورؤاهم.كما أن لها دلالات جمالية تبسط من خلالها فعل التذكر والتخيل، ويقول عن دراسته أنها: « بحث في تحديد القيمة الإنسانية لأنواع المكان الذي يمكننا الإمساك به والذي يمكن الدفاع عنه، أي المكان الذي نحب، إن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى لا مباليا » [1].هذا ما يبرر اتجاهه الوجداني في دراسة أماكن الألفة دون الأماكن التي ينفر منها الإنسان، والتي يرى أنها أفضية غير مرغوب فيها كونها تحد من إنسانيته وطموحه.

وتذهب "**جوليا كريستيفا**" في دراستها للفضاء إلى أبعد من ذلك، فهي ترى الفضاء كرؤية شمولية للعالم؛ حيث أن الفضاء عندها تتحكم فيه التناصات العديدة للنصوص، والتي تتقاطع مع بعضها عبر العصور، وهذا ما أطلقت عليه اسم "إيديولوجيم العصر"[2]، و«الإيديولوجيم هو الطابع الثقافي العام الغالب في عصر من العصور،ولذلك ينبغي للفضاء الروائي أن يدرس دائما في تناصيته...» [3]. وهذا الإيديولوجيم هو الذي تبنى وفقه الأفضية الروائية المنتمية إلى مناخ ثقافي واحد.

وتنظر كذلك "**جوليا كريستيفا**" للفضاء بوصفه وجهة نظر أو زاوية رؤية تقدم من خلالها الرواية بكل جزئياتها، وهذا وفق منظور الروائي الخاص؛ أي أن « كل الفضاء مجمع ومراقب من وجهة نظر وزاوية رؤية وحيدة هي زاوية رؤية الكاتب الذي يهيمن على الخطاب، فكل الأشكال وكل الخطوط تتجمع عنده وهكذا فإن الفضاء الروائي المؤطر من طرف الكاتب يشيد منصة عرض يتأملها مثل الجمهور» [4]، وهذا يعني أن رؤية الكاتب تساهم بشكل كبير في تشكيل بنية الفضاء وبعده الدلالي داخل المتن الروائي.

أما الفضاء عند "**جيرار جينيت**" فيشكل الناموس العام للرواية، فهو« يخلق نظاما داخل النص، مهما بدا في الغالب كأنه انعكاس صادق لخارج النص الذي يدعى تصويره، بمعنى أن دراسة الفضاء الروائي ترتبط ارتباطا وثيقا بالآثار التشخيصية» [5]، و"**جينيت**" يتفق هنا مع "**كريستيفا**" في كون الفضاء انعكاس للطابع الثقافي و الإيديولوجي الذي يصبغ عصر الروائي.

ويرى "**حميد لحميدان**" أن **«** الفضاء في الرواية هو أوسع وأشمل من المكان، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكي سواء كانت تلك التي تم تصويرها بشكل مباشر، أم تلك التي تدرك بالضرورة وبطريقة ضمنية مع كل حركة حكائية، ثم إن الخط التطوري الزمني ضروري لإدراك فضائية الرواية بخلاف المكان المحدد، ثم إن إدراكه ليس مشروطا بالسيرورة الزمنية للقصة**»** [6]. ويشير هذا إلى أن العلاقة بين الفضاء والمكان هي علاقة العام بالخاص، إذ أن مجموعة من الأمكنة بالإضافة إلى سيرورة الأحداث من طرف الشخصيات ضمن الخط التطوري للزمن، مجتمعين في رؤية فكرية مشحونة بعدة دلالات، جميعها يشكل الفضاء داخل الرواية.

ولكن يحمل رأي **لحميدان** مفهوما عكسيا للمكان، فالمكان عنده عبارة عن مجموعة من النقاط الجغرافية كالبيت والمقهى، والجامعة...إلخ، لا يحتاج وجوده إلى سيرورة الزمن أو الأحداث، فهو قائم بذاته، أما الفضاء فلا يمكن تصوره خارج تلك السيرورة، وهذا ما

يؤكده في قوله: « إن فضاء الرواية هو الذي يلفها جميعا، إنه العالم الواسع الذي يشمل مجموع الأحداث الروائية، فالمقهى والمنزل والشارع، أو الساحة كل واحد منها يعتبر مكانا محددا، ولكن إذا كانت الرواية تشمل هذه الأشياء كلها فإنها جميعا تشكل فضاء الرواية» [7].

ويحدد ل**حميدان** أربعة أشكال للفضاء انطلاقا من مفهومه[8]:

1-الفضاء الجغرافي: وهو مقابل لمفهوم المكان، ويخلق عن طريق السرد، وهو الفضاء الذي تتحرك فيه الشخصيات وتتعاقب فيه الأحداث.

2-الفضاء النصي: وهو فضاء مكاني أيضا غير أنه يتعلق بالمكان الذي تشغله الكتابة الروائي؛من حيث هي أحرف طباعية متتالية على مساحة الورق.

3-الفضاء الدلالي: ويشير إلى الصورة التي تشكلها لغة السرد، وما يترتب عنها من أبعاد مرتبطة بالدلالة المجازية.

4-الفضاء كمنظور:وهو الطريقة التي من خلالها يستطيع الكاتب أن يسيطر على عالمه السردي.غير أننا سنقتصر في دراستنا لرواية "شرق المتوسط" على الفضاء الجغرافي والفضاء النصي.

أولا: الفضاء الجغرافي

يعد الفضاء المكاني الذي تتحرك فيه الشخصيات، والحاضنة الاستيعابية للأحداث، وهو يتوزع على طول الرواية، ورغم أن عبد الرحمان منيف لم يحفل كثيرا بتحديد الأماكن الجغرافية في الرواية، إلا أنه يوجد حد أدنى لبعض الإشارات الدالة على ذلك، فالروائي على رأي حميد لحميدان«يقدم دائما حدا أدنى من الإشارات "الجغرافية" التي تشكل فقط نقطة انطلاق من أجل تحريك خيال القارئ، أو من أجل تحقيق استكشافات منهجية للأماكن »[9]. وهذا ما نجده في رواية "شرق المتوسط"؛ حيث يتمظهر الفضاء فيها من

خلال الثنائية الضدية (فضاء مفتوح / فضاء مغلق)، وذلك من خلال تصنيفنا للأماكن المشار إليها في الرواية.

1-الفضاء المفتوح:

بالنظر إلى خاصية الانفتاح في الفضاء نستطيع تحديد الأفضية التالية: (الشرق، الباخرة أشيلوس، الغرب)، باعتبارها أفضية منفتحة.

1-1-الشرق:

وهو الفضاء الذي سيطر على الرواية منذ بدايتها إلى نهايتها، فلقد عاش فيه "رجب إسماعيل"، وفيه كذلك سجن وعذب، وفي كل مرة كان يتذكره الراوي البطل" رجب"حتى وهو في الغربة«حتى الفرح الشديد حرمه علي الدكتور فالي، كان يسخر مني عندما نطق الكلمة الأخيرة، هل يتصور أن على الشاطئ الشرقي للمتوسط إنسانا واحدا يمكن أن يموت من الفرح؟ الفرح بالنسبة للشعب السجين طائر مهاجر..حتى الجلادون لا أظن أنهم قادرون على الفرح...إنهم ينامون تحت أقواس من السياط، تحت أشباح الصرخات، يأكلهم الخوف أن تدق أبواب بيوتهم أواخر الليل وينتزعون من فراشهم، لكي يدفعوا الدين الذي رقابهم؟» [10]، في الشرق الكل يعيش في شقاء، السجان والسجين؛ فالسجان عبد مأمور من السلطة ينفذ ما يطلب منه، يقتات من دماء الناس وأرواحهم، وفي كل يوم يتوجس خيفة من انتقامهم، أو انتقام أهليهم، أما السجين فهو كل مثقف معارض للسلطة ولسياستها، تنزل عليه غضبها وسخطها بالسجن والتعذيب.

وفي الشرق يسجن المرء فقط لامتلاكه كتبا عناوينها لا تعجب السلطة ولا تروقها، فعندما رأى "رجب" الكم الهائل للكتب المنتشرة على ضفاف نهر السين، تذكر الشرق وما يمكن أن يحدث لهم إن هم ذهبوا إليه: «آه يا أهل باريس لو جئتم بكتبكم إلى شاطئ المتوسط الشرقي، لقضيتم حياتكم كلها في السجون، سيأكلكم الندم، وستكفرون بكل شيء، واحذروا أكثر أن تكفروا بالأحزاب لأن أي كلمة تجد من

يلتقطها ويجعلها مؤامرة وتخريبا، وتدفعون ثمن كلمات حياتكم كلها في السجون الصحراوية، وهناك تصابون بالسل والتيفوس وتموتون» [11]،هذا يعني أن الوعي الفكري والثقافة، والحرية السياسية جرم عظيم في المشرق.

حتى أن "رجب" كان يحذر الباخرة أشيلوس من أن تقترب من فضاء الشرق « أشيلوس يا بقرة بيضاء مقطوعة السيقان، ألا تعرفين كم مرة يموت الإنسان وكم مرة يولد؟ التفتي إلى الشاطئ الشرقي، لتغزر دموعك في الأماكن المظلمة، وانظري ..بقايا البشر..الضحايا الجلادين..بقايا بشر؟..احذري يا أشيلوس الجنون والوحدة .. » [12]، سوف لن يفلت أحد من قبضة الشرق –في نظر رجب–حتى الباخرة أشيلوس سيكون مصيرها السجن.

إن فضاء الشرق باعتباره سجنا كبيرا، يقمع فيه أصحاب الوعي والفكر، لا يسمح لهم بالتعبير عن أرائهم وأفكارهم فضلا عن المشاركة في السلطة، ذلك ما جعل "رجب إسماعيل" يمقت الشرق، ويجعله مدار خطابه كله من خلال نقده ولعنه.

1–2–الباخرة أشيلوس:

وهي أول فضاء يظهر فيه "رجب" وهو مغادر أرض الوطن، وعلى متنها تم استرجاع معظم أحداث الرواية،«وتكتسب الباخرة دلالتها انطلاقا من اسمها المستل من أعماق التراث اليوناني فأشيلوس بطل الإلياذة الأولى لهوميروس وقلب المعركة في الملحمة» [13]، ولقد شكلت الباخرة بكل مجتزئاتها فعل تحفيز ل"رجب" على تذكر الماضي، من أجل البداية من جديد، ها هو الآن يغادر الوطن (الشرق) الذي سجن فيه وعذب حتى تدهورت صحته، قاصدا الغرب ليعالج أسقام الجسد والروح، ولهذا كانت أشيلوس باخرة النجاة من الشرق « ميناء الشقاء ويا ليته ميناء اللاعودة، أخر قطعة من الوطن وآخر أوراق خضراء وأنين»[14]، تمنى "رجب إسماعيل أن يجد الحرية في الفضاء الذي سيذهب إليه« أشيلوس باخرة الركاب اليونانية تبحر الآن عبر المتوسط، إذا انقطع المطر وظل

البحر مثلما هو الآن..فعند الغروب سنصل إلى البيريه، البيريه أول خصلة من اليونان، لن أتوقف فيها أكثر مما تتوقف الباخرة، لا أريد اليونان معذبة، سأحيي رجالها من بعيد، وأواصل الرحيل قالوا أن الحرية في أرض أخرى، أبعد من اليونان، يمكن أن يعيش فيها الإنسان أيامه دون أن يوقظه عند الفجر صوت المخبرين وضربات أحذيتهم..سأرحل إلى تلك البلاد» [15]، ولكن في الحقيقة ما يحتاجه "رجب" ليس حرية الفضاء، بل يحتاج التحرر من قيود السجن التي كبلت روحه وجسده، لهذا نجده في الباخرة يقيد نفسه رغم أنها تحمل على سطحها كما هائلا من الحرية. وكل شيء على سطح الباخرة يذكره بأيام السجن حتى أسئلة الفتاة التي حاولت التقرب منه تهرب منها وهو يقول في نفسه: « لقد امتلأت روحي بالأسئلة حتى لا أطيق الآن أن يسألني أحد. لا أعرف شيئا ولا أريد أن أعرف أي شيء»[16]."رجب" لا يريد أن يسمع أي سؤال، لقد اكتفى من أسئلة المحققين في السجن ولم يعد يطيق المزيد.

إن فضاء الباخرة المملوء بالحرية لم يستطع أن يخرج "رجب" من سجنه الداخلي، بل إن الأخير لازمه وفرض عليه العودة إلى الماضي، واسترجاع أصناف التعذيب التي ذاقها داخل سجون الشرق، ولم يكن استرجاعه انكسارا لنفسه، بقدر ما كان تنفيسا عن ندمه؛ لأنه وقع ورقة الاعتراف وسقط.

1-3-الغرب:

لقد كان فضاء الغرب مناقضا للفضاء الذي عاش فيه "رجب إسماعيل" (الشرق) بشكل تام ، فالحرية في هذا الفضاء يقابلها السجن في الشرق، والحضارة يقابلها التخلف، والفقر يقابله الترف، ونجد هذا في حوار "رجب إسماعيل مع الطالب عبد الغفور حول لوحة "**بيكاسو**" التي قاد بها ثورة بكاملها « أتعرف لو أن رساما عندنا رسم هذه اللوحة لضربوه بالحجارة؟ أتعرف لماذا؟ -لا؟ -لأن الحضارة سلم ليس له نهاية، ويجب على الشعوب أن تبدأ بأول السلم، وشعبنا لم يكتشف بعد السلم، ولم يسمع بشيء اسمه حضارة، لذلك فإن أي محاولة إقناعه بغير ذلك خطأ...»[17].

لقد أراد "رجب" أن يجد في فضاء مرسيليا السكينة التي افتقدها في وطنه، ولكن ماضيه كان يتراءى له في كل لحظة، « مرسيليا مثل الدنيا كلها تستعد لاحتفالات رأس السنة، الناس يتراكضون، المحلات تمتلئ بالبشر والأضواء، والثلج يتساقط ليدفن كل شيء: الماضي والأحزان والأفكار البائسة،وأنا وحدي في فضاء مرسيليا لا أشعر بذرة انسجام مع كل ما حولي، خطوات الناس كبيرة، هربا من الوباء الذي أمثله بخطواتي الصغيرة البطيئة، الأضواء الساطعة تستلقي على وجهي لتفضح ضعفي وخيانتي، وابتسامات العشاق وهم يتعانقون تحت أعمدة النور سخرية كاوية تمزق آخر الأفكار البائسة التي تجول في رأسي»[18]، إن كل جزء من فضاء مرسيليا يزيد في معاناة "رجب" ويعمق مأساته، فكل شيء يذكره بسقوطه وخيانته.

ثم قرر "رجب" بعد ذلك أن يتعرف أكثر على فضاء مرسيليا عله يتعلم شيئا منها، « سوف أسرح مرة أخرى في مرسيليا، سأذرعها في اتجاهاتها الأربع،لن أترك مقهى، ولن أترك ساحة، سأجلس في المقاهي لأدرس تقاطيع وجوه البشر، تصرفاتهم، ضحكاتهم، وحتى همومهم أريد أن أراها، لعلي أتعلم شيئا» [19]، أما الشيء الذي أراد "رجب" أن يتعلمه، فهو مدى الاختلاف بين الغرب والشرق، بين الحضارة واللاحضارة.

وبعد أن ضاقت به مرسيليا ولم يساعده جوها على الكتابة، قصد باريس، وهناك ازداد عجبه من الحرية التي يتمتع بها الغرب« لكن في باريس رأيت أمورا أعجب، الأحزاب لها مراكز مكتوب عليها الأسماء بوضوح، يدخلها الناس دون خوف، يدخلون دون أن ينظروا وراءهم، ويتكلمون في الشوارع بصوت عال... أما الجرائد فإنها تنشر كل شيء...الأفكار،وحوادث القتل...والناس يقرؤون...أما الكتب فلابد أن الإنسان يعجز عن معرفة ما يصدر منها لكثرتها»[20]، لقد بدا فضاء باريس لرجب أكثر تحررا من مرسيليا،فلقد رأى أشياء عجب لها الجرائد التي تكتب بحرية، والأمر الأكثر عجبا هو التعددية الحزبية بشكل معلن وصريح ، ولا أحد يعاقبهم أو يدخلهم إلى السجون، وكذلك الكتب المتنوعة التي تعد دليل جرم في شرق المتوسط « وجدنا لدى تفتيش بيت

الموقوف، الأدوات الجرمية المرفقة...ويذكرون أسماء الكتب..»[21]،هي منتشرة على ضفاف نهر السين بالملايين. وفي نهاية المطاف وجد "رجب" نفسه غريبا في هذا الفضاء، لا يستطيع أن يتأقلم معه، فلقد تعودت روحه على السجن والقيود« باريس لم تخلق لي... لا أستحق شيئا في باريس، حتى الماء الذي أشربه يبدو لي أكثر مما أستحق، بعد غد أعود إلى مرسيليا لأرى الدكتور فالي، يجب أن أبقى معه فترة طويلة لأسأله عما يجب أن أفعل في فرنسا من أجل الناس الذين ينامون الآن في السجون... » [22].

إن فضاء الغرب بكل ما يحمله من مظاهر الحضارة والحرية الفكرية والسياسية، عمق مأساة "رجب"وأشعره بمرارة الحياة في شرق المتوسط، كما ساهم في تشكيل خطابه، وجعل منه خطابا ثائرا ناقما على الشرق.

2-الفضاء المغلق:

ويتحدد انغلاق الفضاء من خلال ما يعكسه على نفسية وسلوك الشخصيات، وهذا الانعكاس يعد أمرا مهما؛ حيث أنه من الممكن أن يكون الفضاء منفتحا بصفة متفق عليها، ولكنه منغلق لما يعكسه على الشخصيات من شعور بالوحدة والاختناق.

2-1-السجن:

لقد كان فضاء السجن فضاء مسترجعا على طول الرواية، ولقد ساهم بكل مجتزئاته من غرفة التحقيق إلى الانفرادي في تحطيم نفس "رجب إسماعيل"، وكذا جسده الذي امتلأ بالأسقام بسبب التعذيب، وبدأت رحلته مع هذا الفضاء بالانفرادي«كان القبو صغيرا لدرجة أن ثلاثة أشخاص لا يمكن أن يناموا فيه، أما الجدران والسقف، فقد كانت متقاربة لزجة، والنافذة الصغيرة، والتي تشبه شقا، كانت تستقبل ضوء باهتا، ينزلق إليها من أرض الوحوش...» [24]، وليس هذا فقط، بل سرعان ما امتلأ القبو بالماء البارد ردا من الحارس غلى احتجاج وشتائم "رجب"، ولم يجد مكانا ينام فيه ليلتها سوى أدراج القبو« بدأت من أولى الدرجات كانت ضيقة، صغيرة، لا تتيح للإنسان أن يجلس،

وكانت حوافها محطمة في أكثر من موضع، حتى أن تفكيري قادني إلى أن هذه الدرجات حطمت بشكل مقصود لكي لا ينام عليها أحد.. » [25]، ومنذ تلك الليلة قرر "رجب" أن يصمد ويتحمل كما تحمل رفاقه من قبل.

وبعد خروجه من فضاء الانفرادي انتقل إلى فضاء الغرفة التي لا تقل سوء عن القبو« كنا أربعة عشر رجلا..نعم أربعة عشر. الغرفة لا يمكن أن تستقبلنا إلا وقوفا، وقوفا تماما، كانت الأجساد متراصة، رائحة العرق، رائحة الأفواه، الشعور الطويلة، الأظافر السوداء من بقع الدم المتخثرة تحتها...» [26]، ورغم هذه الحالة المزرية إلا أنه كان يشعر مع رفاقه بالأنس، حتى بعد حفلات التعذيب كانوا يخففون عن بعضهم البعض،ويواسون أنفسهم بوحدتهم وبأنهم على حق، ولكن في الليلة الأخيرة بعد أن وقع "رجب" ورقة الاعتراف، اختلف كل شيء« كانت الليلة الأخيرة صعبة كالولادة الميتة، توقفت الساعة التي في يدي، أصبحت كحجر أسود مشلول، ينبئ بالنهاية، تملكني الخوف، حتى ظننت أنهم لن يتركوني على قيد الحياة،تصورت أني لو نمت لحظة واحدة، فسوف يطبقون علي ويقتلونني... » [27]، امتلأ فضاء غرفة السجن في ليلة "رجب" الأخيرة بالحزن الثقيل والخوف، حتى أنه كان يتوجس ويرتاب من كل نظرة، ومع كل حركة كان يخيل إليه أنهم سوف يهجمون عليه.

أما فضاء غرفة التحقيق أو غرفة مدير السجن، فهو الفضاء الذي انهار فيه رجب أمام وضعه الصحي، وسقط من خلال توقيعه ورقة الاعتراف: « كانوا أربعة في غرفة مدير السجن، كنت أعرف اثنين منهم فقط، أما الاثنان الآخران فكنت أراهما لأول مرة، قال لي الآغا:-جاءت الموافقة على إطلاق سراحك، وغدا قبل الظهر ستكون حرا... لم أفاجأ، لقد قدمت الثمن الذي طلبوه كاملا، ولم يبق إلا أن أغادر السجن...» [28]، لقد شهد هذا الفضاء سقوط "رجب" وخيانته لرفاقه تحت مبرر المرض، لهذا ضاقت نفسه في هذا الفضاء المثقل بالخيانة، ورائحة الدخان« كان جو الغرفة ثقيلا برائحة الدخان والأحاديث السابقة، ودقات ساعة الحائط، رفعت رأسي لأنظر إلى الآغا، كانت على

شفته ابتسامة صغيرة، لما التقت نظراتنا، قال:- كان يجب أن تفعل هذا قبل أربع أو خمس سنين، تأخرت كثيرا، دفعت ثمن ذلك من صحتك... » [29].

حتى بعد عودة "رجب" إلى البيت ظل يتذكر الفضاء الذي سقط فيه، ويتخيل الحفلة التي ستقام على شرفه؛ مثل التي قاموا بها بعد توقيع "نجيب":« آخر مرة، بعد أن وقع نجيب تلك الورقة اللعينة، جمعنا الآغا، كان يمسك بيده عصا صغيرة، ظننتها من الخشب أول الأمر، لكن عندما سقطت على الأرض سمعت رنينها، كان يجلس وراء مكتبه وفوقه تماما الضوء المنسكب من مصباح أخضر، يجعل لون الغرفة باردا، تأملنا طويلا وهو يقلب عينيه بيننا، وبعد أن درس وجوهنا بإمعان، هز رأسه وقال لأمجد:- اقترب يا ناعم، يا حلو، واقرأ هذه الورقة بصوت عال؟»[30]، لقد سيطر هذا المشهد على مخيلة "رجب"، وجعله يتخيل نفسه موضوع الحفلة. من هنا كان فضاء غرفة التحقيق سببا في بداية الاغتراب الداخلي "لرجب إسماعيل"؛ ففيه تخاصم مع ذاته، واغترب عنها بعد ما خان رفاقه ووقع ورقة الاعتراف.

2-2-البيت:

بعد أن خرج "رجب" من فضاء السجن انتقل مباشرة إلى فضاء البيت، وهناك اكتشف أنه أصبح غريبا عن البيت، رغم أن أنيسة اجتهدت في ترتيب غرفته حتى يشعر بالراحة، إلا أنه لم يشعر بها لحظة واحدة، « لم أنم رغم كل ما فعلته أنيسة، أحضرت لي بيجامة حامد، أحضرت ملابس داخلية نظيفة، وضعت "علبة سجائر" و"منفضة" إلى جانب السرير، أنزلت الستارة وابتسمت وهي تغادر الغرفة...»[31]، رغم كل تلك الجهود إلا أن "رجب" لم يشعر بأنه في غرفته التي تركها قبل خمس سنوات، بدت له كأنها لشخص آخر، حتى صورته الملصقة في زاوية الشهادة المعلقة على جدار الغرفة، أنكرها، فهي لم تعد تشبه رجب العائد من السجن«توقفت عيناي على صورة الشهادة، كانت في زاويتها اليسرى صورتي، نهضت على رؤوس أصابعي، صعدت فوق المقعد ونظرت طويلا إلى الصورة، "ليس بيننا أي شبه"...»[32]، منذ أن خرج رجب من السجن وهو

يعيش اغترابا داخليا؛ "فرجب" الذي ضعف أمام جسده ووقع ورقة الاعتراف، أصبح غريبا عن "رجب" البطل الثائر ضد السلطة والذي صمد في وجه التعذيب وصنوفه خمس سنين، يقول: « كانت رائحة الفراش لذيذة أول الأمر، غطيت وجهي وأغمضت عيني وتنفست، لا يمكن أن يكون هذا الفراش لي، مات صاحب هذا الفراش، تغيرت الرائحة، إنها رائحة اليود رائحة المستشفيات » (33)، أصبح هذا الفضاء غريبا على "رجب" بكل ما فيه،« لم تعد هذه الغرفة غرفتي، والسرير لم أره من قبل، لم أنم عليه، كل شيء تغير...لا، أنا الذي تغيرت» ، وعليه فإن فضاء البيت وما يتميز به من حميمية إلا أنه لم يستطع الاندماج فيه، واعتبره فضاء غريبا عنه، هذا ما جعل الشعور بالاغتراب الداخلي ينمو لدى "رجب" ويعلو صوته أكثر كلما تذكر التوقيع والخيانة.

2-3-قبر الأم:

وهو الفضاء الذي أراد رجب أن يتطهر فيه من الخطيئة،فلقد زاره في اليوم الثاني بعد خروجه من السجن مع أخته أنيسة، غير أنه طلب منها مغادرة المقبرة بمجرد أن عينت له القبر، وتقول في ذلك أنيسة أو الراوي الشاهد: « ونتيجة لإلحاحه عدت، رأيته وأنا أخرج من المقبرة يتابعني بنظراته ليتأكد، ولا أعرف أي شيء فعل ...لكن عند الظهر لما عاد، رأيته شاحبا عصبيا، وتمنيت لو اني لم أمتثل لكلماته» (23)، منذ ذلك اليوم ولمدة أسبوعين كان رجب يزور قبر أمه كل يوم وأحيانا يبيت هناك.

2-4-غرفة الفحص:

وهي غرفة الطبيب فالي، قصدها "رجب" من أجل الفحص والمعاينة، وفي هذا الفضاء تعمقت مأساة "رجب" وازداد اغترابا عن ذاته؛ ذلك لأن الأطباء عندما علموا بأنه كان سجينا سياسيا عاملوه معاملة البطل، فلقد أخفى عليهم حقيقة سقوطه، لهذا شعر "رجب" بأنه لا يستحق ذلك كله« استقبلني ثلاثة أطباء، امرأة ورجلان،عروني من ثيابي تماما، كنت وأنا أنزع ثيابي أتذكر "النوري"،كانت الغرفة دافئة، بلونها الأزرق الهادئ،

والملاءة الموضوعة على طاولة الفحص نظيفة، شعرت أني لا أستحق ذلك، يجب أن أتعرى في مزبلة...» [34]، لقد أحس "رجب" أن نظافة هذا الفضاء وصفاءه لا تتلاءم مع وساخة نفسه وتشوهها؛ لهذا كان في كل مرة يركز على إبراز صفة النظافة لهذا الفضاء « في الصمت النظيف المخيم على الجدران والملاءة والزجاج...»[35]، وهكذا ساهم فضاء غرفة الفحص في احتقار "رجب" لذاته واغترابه عنها.

ثانيا: الفضاء النصي

ونعني بالفضاء النصي « الحيز الذي تشغله الكتابة ذاتها باعتبارها أحرف طباعية على مساحة الورق، ويشمل ذلك طريقة تصميم الغلاف، ووضع المطالع، وتنظيم الفصول ، وتغيرات الكتابة المطبعية ، وتشكيل العناوين، وغيرها» [36]،والفضاء النصي فضاء مكاني لأنه يشغل مساحة من المادة الورقية فيشكل « الكتاب وأبعاده ، غير أنه مكان محدود ولا علاقة له بالمكان الذي يتحرك فيه الأبطال، فهو مكان تتحرك فيه-على الأصح- عين القارئ، هو إذا بكل بساطة فضاء الكتابة الروائية باعتبارها طباعة» [37]، وقد تناول "**ميشال بوتور**" كذلك الفضاء النصي بالدراسة، فهو يرى أن أهمية الفضاء النصي ، تكمن في استفزاز القارئ نظريا وأيقونيا وذلك بتشكيلات سيميائية القائمة على اللون والفراغ والاكتمال مع التنويع في استعمال الخطوط والأحرف، والتركيز على الحرف الطباعي، وتكمن أهميته كذلك في« أنه يحدد أحيانا طبيعة تعامل القارئ مع النص الروائي أو الحكائي عموما، وقد يوجه القارئ إلى فهم خاص للعمل» [38]،ولهذا السبب تماما نفسر اختلاف مواجهتنا مثلا لروايتين يختلفان من حيث التخرج المطبعي ف« مواجهتنا لرواية لم يضع صاحبها إلا اسمه على غلاف أبيض، إنها حتما ستختلف عن مواجهتنا للرواية المصدرة بعنوان فخم ورسم راق» [39]، هذا يعني أن الفضاء النصي لرواية ما قد يشي ببعض أسرارها الدلالية للقارئ ، وقد يساعده على الغوص والتعمق في الدلالة الإيديولوجية للنص السردي.

ولقد آثرنا في دراستنا للفضاء النصي في رواية "شرق المتوسط" أن نقتصر على ثلاث نقاط، وهي : تصميم الغلاف، البياض وعلامات الترقيم ، والتشكيل المطبعي .

1-تصميم غلاف "شرق المتوسط":

لقد عنيت الدراسات النقدية الحديثة بدراسة تصميم الغلاف وأثره على فهم القارئ للنص، فهو« لم يعد حيلة شكلية بقدر ما هو يدخل في تشكيل تضاريس النص، بل أحيانا يكون هو المؤشر الدال على الإيحائية للنص» [40].ويعد الغلاف كذلك « الشيء الذي يلفت انتباهنا بمجرد حمل الرواية ، إنه العتبة الأولى من عتبات النص، تدخلنا إشاراته إلى اكتشاف النص بغيره من النصوص » [41]، ولذا نجد الروائيين يهتمون بغلاف رواياتهم أيما اهتمام، حتى تنال إعجاب القراء.

أ-الشكل:

لقد جاء غلاف رواية "شرق المتوسط"، التي بين أيدينا باللون الأخضر، يعلوه اسم الروائي "**عبد الرحمان منيف**"، وكذا اسم دار دار النشر، في حين جاء عنوان الرواية مكررا ثلاث مرات، وبألوان مختلفة، وفي المنتصف أشير إلى جنس العمل الأدبي بكلمة "رواية"، أما تكرار العنوان بألوان مختلفة، فهو دلالة على تكرار معاناة السجين السياسي "رجب إسماعيل" في كل بلدان شرق المتوسط، مهما اختلفت أسماؤها فيبقى حكمها واحد.

ب-اللون:

يعد اللون في العمل الأدبي« أحد أبرز العناصر الجمالية في الفنون إذ يشكل حضورا واسعا يمكن أن يغير مسار الشكل الإبداعي سلبا أو إيجابا» [41]، وذلك من خلال انعكاسه على نفوس المتلقين وما يولد فيها من دلالات، والألوان لغة رمزية يتواصل بها الكاتب مع المتلقي، وهي لغة لها دلالات عديدة وعميقة، فهي« وسيلة للتعبير والفهم، وإن كان عرضا لا يقوم بذاته، ولا بد له من مكان وزمان وشيء، فإنه من أسرار

الوجود.. وهو قوة موحية جذابة تؤثر في جهازنا العصبي وللنفس فرحة لا يستهان بها عند النظر إليه »[42]، لذلك نجد الكتاب ينتقون بحذر الألوان التي يصدرون بها أغلفة رواياتهم، حتى تلقى القبول المنشود في نفوس القراء، بالإضافة إلى ذلك فإن« اللون يحمل قدرا كبيرا من العناصر الجمالية وإضاءات دالة تعطي أبعاد فنية في العمل الأدبي» [43]،بمعنى أن لكل لون من الألوان دلالته العميقة، ولهذا فإن توظيفه في أغلفة الروايات ليس اعتباطيا، بل له أبعاد دلالية يسعى الكاتب إلى إيصالها للمتلقي عن طريق الرمز.

ولقد تباينت الألوان في غلاف "شرق المتوسط"، ابتداء من الأخضر لون خلفية الغلاف إلى اللون الأصفر المخضر، والأزرق، والأبيض، ولكل لون دلالته وبعده الرمزي، وفيما يأتي سنحاول تقريب دلالة كل لون وربطها بالمعنى الدلالي العام للرواية.

1-اللون الأزرق: ويوحي هذا اللون بالامتداد واللانهاية، كما أنه يدل على الشباب والبراءة والثقة، ويوحي بالبحر الهادئ[44]، وكأن هذا اللون ينبهنا أن الشرق كبداية هو بلاد الشباب الطموح، المليء بالبراءة والثقة، المحارب من أجل إظهار أفكاره والمواجهة بها باعتبار أن هذا اللون يدل أيضا على « المواجهة الفكرية» [45]،وهذه هي حال المثقف "رجب".

2-اللون الأصفر المخضر: بغض النظر عن مدى نبذ النفس البشرية لهذا اللون لارتباطه بالمرض والسقم، فهو يدل أيضا على الجبن والغدر، والبذاءة والخيانة[46]، وهذا هو الوجه الثاني لشرق المتوسط، وجه السلطة التي تغدر بكل مثقف وتجبره على الخيانة وتدفعه إلى المرض والسقم مثلما فعلت مع "رجب إسماعيل".

3-الأبيض: أما هذا اللون فيمثل الوجه الذي يرجوه الروائي من شرق المتوسط رغم كل التناقضات الموجودة فيه، فهو يأمل أن تتمتع بلاد شرق المتوسط بالسلام والأمن والاستقرار ذات يوم.

4-اللون الأخضر:وهو رمز الثقافة الإسلامية عند أهل الشرق باعتبار أنه « ينطوي على هالة محببة في نفوس المسلمين، تكونت حوله على مر العصور وهو في الوقت نفسه رمز للجنة التي وصفت بهذا اللون في القرآن الكريم»[47]، بالإضافة إلى توظيفه في خلفية الغلاف، فهذا يرمز إلى الشرق باعتباره مهد الثقافة الإسلامية،وكذا باعتباره الحاضنة الرئيسة لموضوع الرواية.

2-البياض وعلامات الترقيم:

يكون البياض في أغلب الأحيان عبارة عن إعلان لنهاية فصل أو جزء أو قسم في الرواية، والبياض يشبه كثيرا الصمت[48]، الذي يخبئ خلفه عاصفة من الكلام، ونجد البياض في رواية "شرق المتوسط "يتخلل الأجزاء؛ أي يفصل بين نهاية جزء وبداية آخر، فيأتي البياض نصف صفحة « وقد يكون هذا الانتقال دالا على مرور زمني أو حدثي وما يتبع ذلك أيضا من تغيرات مكانية على مستوى القصة ذاتها» [49]، علما أن هذه الرواية جاءت في ستة أجزاء، على مدار مائة وستة وسبعون صفحة ، وإذا جمعنا كل البياضات في الرواية فهي تقارب سبع صفحات، ولعل الروائي أراد من خلال كل هذا البياض أن يترك مساحة للقارئ حتى يقرأ المسكوت عنه.

أما علامات الترقيم فلها أهمية كبيرة في الأعمال الأدبية، وخاصة الرواية؛ حيث أنها «تسهل الفهم على القارئ،وتجود إدراكه للمعاني وتفسر المقاصد، وتوضح التراكيب أثناء القراءة، فتجنب القارئ هدر الوقت بين تردد النظر ، وبين اشتغال الذهن في تفهم العبارات كان من أيسر الأمور إدراك معانيها، لو كانت تقاسيمها وأجزاؤها مفصولة أو موصولة بعلامة تبين أغراضها، وتوضح مراميها» [50]، لقد استعمل منيف في روايته علامات الترقيم، كنقاط الحذف، وعلامة الاستفهام، وعلامة التعجب بشكل ملفت للانتباه.وهذا الاستعمال أبدا لم يكن بريئا أو اعتباطيا، وإنما كان له دلالة بالغة في المعنى، وذلك لأن اللسانيين يؤكدون على«وجود علاقة تلازم مباشرة ما بين الترقيم والمعنى» [51]،إن أهمية علامة الترقيم في الرواية نابعة من ذاتها، فهي تحل محل الإيماءة، وتغير سمات

الوجه والنظر بالنسبة للمتكلم، ولأن الروائي لا يستطيع أن يعبر بالكلام، فهو « يعبر بواسطة علامات الترقيم، هذه العلامات التي تعتبر من الوجهة اللسانية ...صامتة لكنها ناطقة من جهة الدلالة» [52]، فهي « في تصور الكاتب، مثل الحركات اليدوية والانفعالات النفسية، والنبرات الصوتية التي يستخدمها المتحدث أثناء كلامه؛ ليضيف إليه دقة التعبير وصدق الدلالة، فهي ...توجه دلالة الخطاب الشفوي، كما أنها تنظم الموضوع، وتجمل لغته، وتحسن عرضه؛ فيظهر في جمالية خاصة تريح القراء وتدفعهم إلى القراءة والاستمتاع بها»[53].ونجدها بكثرة في "شرق المتوسط" على شكل نقاط الحذف التي تتوسط الجملة أو تعقبها، وهي أبدا لم تكن اعتباطية الدلالة؛ إذ أن« قراءة جملة أو كلمة تتبعها نقطتان إشارة إلى أن ثمة شيء لم يقله الكاتب و أنه موجود هنا قريبا فقط، وما على القارئ إلا أن يستدرج هذا المعنى، مع أنه ليس من الضروري أن يكون المعنى المضاف نفسه عند القراء» [54]،فكل قارئ وطريقته الخاصة في صياغة المعنى،وملء الفراغات.

وكذلك نجدها على شكل علامة تعجب،وعلامة استفهام؛ إذ أنه لا تخلوا نهاية جملة أو فقرة من علامة تعجب أو علامة استفهام، ومعلوم ما لهاتين العلامتين من دلالة على الحيرة والدهشة والسؤال، ولا غرابة في هذه الكثرة؛ لأن الرواية ككل هي رسالة من منيف إلى أبناء الوطن العربي، وخاصة المثقفين، فهو يسائلهم إلى متى هذا الصمت؟إلى متى يقبع المثقف داخل السجن ويهان بأبشع طرق التعذيب؟

3-التشكيل المطبعي:

لقد أشار "**ميشال بوتور**" إلى أهم مظاهر هذا الفضاء، أي الكتابة ضمن الصفحة، فتناول طول السطر، وعلو الصفحة وحجم الكتابة ، كما أشار كذلك إلى الكتابة الأفقية في الصفحة، والكتابة العمودية، والصفحة داخل الصفحة، وألواح الكتابة، والفهارس[55]، ولقد لجأ العديد من الروائيين إلى هذه التقنيات الكتابية من أجل إبراز

جملة من المعاني والدلالات، حتى يدركها القارئ بطريقة غير مباشرة، كما أن لهذه التقنيات الكتابية وظيفة جمالية إلى جانب الوظيفة الدلالية.

أما الكتابة المطبعية في "**الأشجار واغتيال مرزوق**" فكانت كتابة أفقية، تبتدئ من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار،« وقد تعطي هذه الطريقة في الكتابة الانطباع بتزاحم الأحداث أو الأفكار في ذهن البطل الرئيسي في النص الروائي...»[56]، وينطبق هذا الاحتمال على "منصور عبد السلام"؛ حيث جاء خطابه مزدحما بالأفكار والأحداث، وقد برز هذا من خلال مونولوجاته وحواراته الخارجية.

أما لون الخط وحجمه فلم يتغير منذ بداية الرواية إلى نهايتها، وحتى يميز الحوار عن السرد أو الوصف، كان يضع في بداية كل جملة من الحوار مطة صغيرة :

« قلت لهم وأنا أتلوى من الأم: -لا أعرف هادي ولم تره عيني؟

-تتصور أن ما تعاني منه ألما؟ سوف ترى بعينيك كيف تأخذنا وتشير إلى البيت الذي يختبئ فيه، دون أن نسألك..لن يطول صمتك؟

-ولكني لا أعرف إنسانا بهذا الاسم؟

-هذا ليس اسم إنسان، أنه وحش، أتعرف وحشا بهذا الاسم؟

-قلت لكم لا أعرف أحدا بهذا الاسم...»[57].

وختاما لمبحث الفضاء في رواية "شرق المتوسط" لعبد الرحمان منيف، يمكننا أن نخلص إلى نقطة مهمة مفادها أن الفضاء جاء مؤطرا من زاوية نظر الشخصية البطلة "رجب إسماعيل"، كما كان محاورا حقيقيا وعنصرا هاما في بناء الفضاء الفني وما ينتجه من معاني مكثفة ودلالات عدة.

الهوامش:

1-غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، ط3، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت،1987،ص:31.

2-julia kristiva , le texte du roman , Ed : Moulon, paris ,page :182.

3-حميد لحميدان، بنية النص السردي،من منظور النقد الأدبي،ط1،المركز الثقافي العربي، لبنان، 1991، ص:99.

4-julia kristiva, le texte du roman, page :182.

5- جيرار جينيت وآخرون،الفضاء الروائي، تر:عبد الرحيم حزل، دط،لبنان، 2002،ص:20.

6- حميد لحميدان، بنية النص السردي، ص:64.

7-المرجع نفسه،ص:63.

8- المرجع نفسه،ص:62.

9- المرجع نفسه،ص:53.

10-عبد الرحمان منيف، شرق المتوسط، ص:154.

11-المصدر نفسه،ص:155.

12- المصدر نفسه،ص:96.

13-علي منصوري، البطل السجين السياسي،في الرواية العربية المعاصرة،أطروحة دكتوراه، إ:محمد العيد تاورته، أدب عربي حديث،جامعة الحاج لخضر باتنة،ص:251.

14-عبد الرحمان منيف، شرق المتوسط، ص:8.

15- المصدر نفسه،ص:78.

16- المصدر نفسه،ص:84.

17- المصدر نفسه،ص161.

18- المصدر نفسه،ص:150.

19- المصدر نفسه،ص:156.

20- المصدر نفسه،ص:155.

21- المصدر نفسه،ص:155.

22- المصدر نفسه،ص:156.

23 المصدر نفسه،ص:43.

24- المصدر نفسه،ص:85.

25- المصدر نفسه،ص:87.

26- المصدر نفسه،ص:99.

27- المصدر نفسه،ص:18.

28- المصدر نفسه،ص:9.

29- المصدر نفسه،ص:9.

30- المصدر نفسه،ص:14.

31- المصدر نفسه،ص:12.

32- المصدر نفسه،ص:12.

33- المصدر نفسه،ص:13.

34- المصدر نفسه،ص:150.

35 المصدر نفسه،ص:152.

36- حميد لحميدان، بنية النص السردي، ص:55.

37-المرجع نفسه، ص:56.

38- المرجع نفسه، ص:56.

39-علال سنقوقة، المتخيل والسلطة، في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية، ط1، منشورات دار الاختلاف، الجزائر، 2000،ص:288.

40-مراد عبد الرحمان مبروك، جيبوليتيكا النص الأدبي،ط1،دار الوفاء، ص:142.

41-عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ص: 272.

42- مراد عبد الرحمان مبروك، جيبوليتيكا النص الأدبي، ص:153.

43-محمد رشدي عبد الجبار الدريدي، النص الموازي في أعمال عبد الرحمان منيف الأدبية،دراسة نقدية تحليلية، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها،كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ص: 211.

44-علي إسماعيل السامرائي، اللون ودلالته الموضوعية والفنية في الشعر الأندلسي،ط1، الأردن، 2013، ص:71.

45-ظاهر محمد هزاع الزواهرة، اللون ودلالته في الشعر،ط1، الأردن، 2008، ص:14.

46-المرجع نفسه، ص:77.

47-قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة، ط1، دار الوراق، 2008، ص:113.

48-ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، تر: فريد أنطونيوس،ط2، منشورات عويدات،بيروت، 1982، ص:121.

49- حميد لحميدان، بنية النص السردي، ص:58.

50-ينظر الموقع التالي:ديوان العرب،علامات الترقيم في الكتابة العربية ومواضع استعمالها diwan alarab.com w w w

51-عبد الستار محمد العوفي، مقاربة تاريخية لعلامات الترقيم، مجلة الفكر المعاصر،مجلد 26، العدد2،أكتوبر-ديسمبر1998،ص:296.

52-المرجع نفسه، ص:297.

53-ينظر الموقع التالي:ديوان العرب،علامات الترقيم في الكتابة العربية ومواضع استعمالها diwan alarab.com w w w

54-فيروز رشام، علامات الترقيم ودلالتها في نثر نزار قباني-السيرة الذاتية أنموذجا-مجلة المعارف، المركز الجامعي،البويرة، العدد2، أفريل،2007،ص:96.

55- ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ص: 128-131.

56- حميد لحميدان، بنية النص السردي، ص:56.

57- عبد الرحمان منيف، شرق المتوسط، ص:79.